منزلة الشعر من التاريخ

﴿ ١٣ ﴾

اسباب المعاش عند العرب

١ً الغزو

اما اسباب المعاش عند العرب فمنها الغزو وشن الغارات فلا يزالون ينهبون ويُنهبون. قال عروة بن الورد العبسي

خاطرْ بنفسك كي تصيب غنيمةً ان القعود مع العيالِ قبيحُ
المال فيهِ مهابة وتجلّة والفقر فيهِ ذلّة وفضوحُ

يريد بالمال الابل والشاء والخيل والحبوب فان العرب كانت تعتبرها مالاً بدليل قول سالم ابن دختان العنبري

فلم أرَ مثل الابل مالاً لمقتنٍ ولا مثل ايام الحقوق لها سُبلا

وقول لقيط بن يعمر الايادي في خطاب لقومهِ

لا تثمروا المال للاعداء انهمُ ان يظهروا يحنوكم والتلاد معا
هيهات لا مال من زرع ولا ابلٍ يُرجَى لغايركم ان أنتكمُ جُدِعا

ولنعد الى الكلام عن الغزو فما يستشهد بهِ على اتخاذهِ ذريعة للاعتياش قول عروة ايضاً

ذريني اطوّف في البلاد لعلّني أخلّيك او اغنيك عن سوء محضري

وقول قيس بن حصين بن يزيد الحارثي

أكلّ عام نَعَم تحرونهُ يلقحهُ قوم وتنتجونهُ

وكانت الغزاة لا يلازمون للغزو جهة واحدة بدليل قول عروة

فيوماً على نجد وغارات اهلها ويوماً بارض ذات شث وعرعرِ[1]

٢ً الاتجار

ومن اسباب المعاش عندهم الاتجار قال الاسود بن يعفر

حتى تناولها صهباء صافية يرشو التجار عليها والتراجيما

وهذا دليل ان العرب كانوا يخالطون سواهم من الامم ويقصدونهم الى بلادهم فيبيعونهم

(١) الشث شجر والعرعر شجر آخر هو السرو

ويتباعون منهم ويحتاجون الى التراجم للتفاهم بين الفريقين . وقد جاء النصُّ بالتجارة صريحًا في قول لبيد بن ربيعة العامري

حسبت التقى والجود خير تجارة رباحًا اذا ما المرء اصبح ثاقلا[٣]

وكانت تجارتهم في الماشية والملابس والخمر والسلاح والحبوب والرقيق. وقد سبق لنا ايراد الشواهد المحققة انهم كانوا يستجلبون بعض ملابسهم من انطاكية ومصر وفارس فضلاً عما كان ينسج في اليمن والعراق من الوصائل والبرود

واما الخمر فمنها ما كانوا يجتلبونهُ من اندرين . قال عمرو بن كلثوم التغلبي

ألا هبي بصحنكِ فاصبحينا ولا تبقي خمور الاندرينا

واندرين لم تزل آهلة حتى الآن وموقعها في لواء مرعش من ولاية حلب وهي الآن قصبة قضاء يُعرَف باسمها . ومنها ما كان يجتلب من بصرى وهي قرية من حوران قال النابغة الذبياني

كأن مشعشعاً من خمر بصرى غتهُ البخت مشدود الخطامِ

نمين فلالهُ من بيت رامٍ الى لقمان في سوق متامِ

وهذا القول يدل على انهُ كان للخمرة سوق مخصصة بها

ومنها ما يستجلب من بيسان قال حسان بن ثابت

من خمر بيسان تخيَّرتها دريئة توشك فتر العظامْ

ومنها ما يستجلب من بابل قال الاعشى

وسبيئة مما تعتق بابل كدم الذبيح سليبتها جريالها[٣]

وقال عبيد بن الابرص

ظلَّتْ بها كأني شارب حمراء مما عتقت بابلُ

ومنها ما كان يجتلب من حمص وهي بلد في الشام قال امرؤ القيس

كأن التجار اصعدوا بسبيئة من الحمص حتى انزلوها على يسر[٤]

ومنها ما كان يجتلب من شبام وهو موضع بالشام ومنهُ ما كان يجتلب من عانة وهي قرية على الفرات فوق هيت التي ذكرها المعري في قولهِ "هات الحديث عن الزوراء او هيتا" قال امرؤ القيس

انف كأون دم الغزال معتق من خمر عانة او كروم شبامِ

ومن اذرعات وهي قرية في حوران ووادي جدَر وهي موضع بالشام قال ابو ذؤيب

(٣) ثقل المريض اذا اشتد مرضهُ (٣) السبيئة الخمرة (٤) بلد في اليمن قطنه امرؤ القيس

فما ان رحيق سبتها المتجا رُ من اذرعات فوادي جَدَر

اما للبيع فكانوا يقصدون مكة واسواقًا يقيمونها لهذه الغاية . ومن الادلة على ذلك قول مخلب الهلالي

وجدتُ لها وجْد الذي ضل نفسهُ بمكة يومًا والرفاق نزولُ (٥)

الى ان يقول

فبيناهُ يشري رحلهُ قال قائل لمن جمل رخو الملاط ذلولُ (٦)

وقال قيس بن زهير ملك بني عبس

ألم يأتيكِ والانباء تنمى بما لاقت قلوص بني زيادِ (٧)

وحبسها على القرشيّ تشرى بادراع واسيافٍ حدادِ

وفي قولهِ دليل اشتراء السلاح بالابل في مكة لأن بني قريش هم سكّان مكة . وقال النابغة الذبياني

كادت تساقطني رحلي ومئزرتي بذي المجاز ولم تحسس بهِ نعما (٨)

من صوت حرميّة قال وقد ظعنوا هل في كُفَيكم من يشتري أدما (٩)

قلتُ لها وهي تسعى تحت لبّتها لاتحطمنّكِ ان البين قد رزما (١٠)

باتت ثلاث ليالٍ ثم واحدة بذي المجاز تراعي منزلاً زيما (١)

فدلّ قولهُ على ان ذا المجاز موضع للبيع بقرب مكة وان العرب كانوا يقيمون سوقهُ اربعة ايام متواصلة

وكانوا يأتون بالبضائع ضمن نطع من جلد ذي سيور تحزّم بهِ قال النابغة الذبياني

على ظهر مِبْناة جديد سيورها يطيف بها وسط اللطيمة بائعُ (٢)

واللطيمة سوق على ما ذهب اليهِ ابو عمرو كذا في شرح ديوان النابغة . واما لسان العرب فينسب هذا القول الى الليث . وقال ثعلب انهُ انشد ابن الاعرابي لماهان بن كعب بن عمرو ابن سعد قولهُ

اذا اصطكت بضيق حُجْرتاها تلاقى العسجدية واللطيمُ

---

(٥) المهزول من الابل (٦) الملاط جانبا السنام و بشري يبيع (٧) القلوص من الابل الشابة

(٨) المئزرة السرج وذو المجاز احد مواسم العرب الخمسة وهي ذو المجاز والمجنة ومنى وعكاظ وحنين

(٩) حرمية منسوبة الى الحزم والادم المجلد (١٠) اللبة الصدر (١) زيما اي ذا فرق

(٢) المبناة النطع وهو بساط من جلد

فقال : المسجدية ابن منسوبة الى سوق يكون فيها المسجد . فاذن كان للذهب سوقٌ يباع بها على رؤوس الاشهاد وكذلك كان للطيبة

ويمكننا الاستدلال على شأن التجارة عند العرب من ماجريات تهم التجارية فمن ذلك (الاستبضاع) من ارضٍ الى اخرى قال خارجة بن ضرار المري

وانك واستبضاعك الشعر نحونا كمستبضع تمرًا الى ارض خيبرا

(والمداينة) قال عنترة العبسي

اذا خصمي تقاضاني بدَينٍ وفيتُ الدينَ بالرمح الرديني

واوضح من ذلك ما جاء في شعر ابي ذؤيب الهذلي وهو قولهُ

ادان وأنبأهُ الأوّلون بأنَّ المدين ملِيٌّ وفيُّ

وقال معن بن أوس

اخذتُ بعين المال حتى نهكتهُ وبالدين حتى ما اكادُ أُدانُ

وحتى سألتُ القرضَ عند ذوي الغنى وردَّ فلانٌ حاجتي وفلانُ

وقالت امرأة ابن مية وهو جار للزبرقان قتل في جواره

اجيران ابن ميَّة اخبروني أعَينٌ لابن مية ام ضمارُ

والعين النقد والضمار الدين الذي لا يرجَى وفاؤهُ . وقال الراعي

وأنضاء أُنخنَ الى سعيد طروقًا ثم عجّلن ابتكارا

حمدنَ مزارهُ فأصبنَ منهُ عطاءً لم يكن عدةً ضمارا

(والاستقالة) وهي الرجوع في المبيع قال بعض عوف بن سعد "بيع امرئ ليس بمستقيل"

(والدلالة) قال عنترة العبسي

حصاني كان دلاّل المنايا نخاض غبارها وشرى وباعا

(والتقسيط) وهو دفع الاثمان قسوطًا في اوقات معينة ويسمّى التنجيم ايضًا قال زهير بن ابي سلمى المزني

تعفّى الكلام بالمثين فاصبحت ينجّمها من ليس فيها بمجرمِ

ينجمها قوم لقوم غرامةً ولم يبرقوا ما بينهم ملء محجمِ

(والرهن) قال زهير بن ابي سلمى

وفارقتك برهنٍ لا فكاك لهُ يوم الوداع فامسى رهنُها غلقا

وقال قعنب بن ام صاحب

باتت سليمى فامسى دونها عَدَنٌ وغلقت عندها من قلبك الرَّهنُ

واستعمالهم (الوزن والمكايلة) دليل اتجارهم بالحبوب وسواها قال زهير بن ابي سلمى

لو يعدلون بوزن او مكايلة مالوا برضوى ولم يعدل بهم أحدُ

وقال الاخطل التغلبي

واذا وضعت اباك في ميزانهم رجحوا وشال ابوك في الميزانِ

ولا يخفى ان بعض لجان البلديات في عصرنا الحاضر تضع مكسًا على ما يؤتى به الى الاسواق ليباع والحكومات ايضًا تضع مكسًا على ما يرد اليها من الخارج او ما تنشئهُ معاملها وكأني بملوك العراق قد ادركوا ذلك فضربوا على الاسواق اتاوة كانوا يتقاضونها من المتبايعين بواسطة اتباع لهم قال جابر بن حني التغلبي

اني كل اسواق العراق اتاوة وفي كلّ ماباع امروءٌ مكسُ درهمِ

الا بنتهي عنا ملوك وتتقي محارمنا لا يبوء الدمُ بالدمِ

تعاطى الملوك السلم ما قصدوا بنا وليس علينا قتلهم بمحرَّمِ (٣)

ولم تكتفِ الملوك بوضع الاتاوة على الاسواق فقد وضعوها على المراعي قال خراش ابن زهير

فاني دليل غير معطٍ اتاوة على نعم ترعى حوالاً وأجربا (٤)

٣ القيام على الماشية

ومن معايش العرب القيام على الماشية كالابل والشاه والماعز قال امرؤ القيس في المعزى

ألا إلاَّ تكن ابلاً فمعزى كانَّ قرون جلَّتها عصيُّ

فتملأ بيتنا اقطًا وسمنًا وحسبك من غنيٍ شبع وريُّ

والاقط مثلث الاول الجبن المتخذ من اللبن الحامض . وقال عمرو بن كلثوم التغلبي في الابل

فما ابقت الايام مما عندنا سوى جذم اذواد تحذقة النسلِ (٥)

ثلاثة اثلاث فاثمان خيلنا واقواتنا وما نسوق الى القتلِ

---

(٣) ما قصدوا ما عدلوا . وفي البيت إخلال لحذفه ما يجب اثباته لتمام المعنى اي وليس علينا قتلهم بمحرم اذا لم يقصدوا بنا فهو من هذا الباب كقول الحارث بن حلزة البشكري

والعيش خير في ظلا لِ المجهل من عاش كدًّا

اي عاش كدًّا في ظلال العقل (٤) حوال واجرب محلاَّن

(٥) مما ل اي من المال وجذم الشيء اصله والاذواد جمع ذود من ثلاث الى التلاثين

وفي البيت الثاني شاهد على بحث آخر وهو ان قبائل البدو كانوا يستجلبون الحبوب من الحضريين . قال المتلمس

آليتَ حبّ العراق الدهر اطعمهُ والحبّ يأكلهُ في القرية السوسُ(٦)
لم تدرِ بصرى بما آليت من قسمٍ ولا دمشق اذا ديس الكرادِيس(٧)

والبيتان في خطاب عمرو بن هند احد ملوك اللخميين (المناذرة) وكان عمرو قد اقسم انهُ لا يدع المتلمس يذوق حب العراق اي قمح العراق . فاخبرهُ الشاعر عن قمح حوران وقمح دمشق . ومن هنا نستنتج ان البدو كانوا يجلبون القمح من القطرين العراقي والشامي

ولنعد الى بحثنا الاول فنقول : لم يكن كل العرب في غنى وسعة فيقتنوا الاماء والعبيد لخدمة البيوت والماشية فكان بعضهم يخدمون انفسهم وبعضهم يستخدمون وبعضهم يخدمون سواهم من ذوي السعة . قال النرزدق يذكر جريرًا باستخدام انسبائهِ عند ابائهِ (اي اباء الفرزدق)

كم عمة لك يا جرير وخالة فدعاء قد حلبت عليَّ عشاري

وقال سليك بن سلكه

اشاب الرأس مني كل يوم اري لي خالة وسط الرحالِ
يشقُّ عليَّ ان يلقين ضيمًا ويقصر عن تخلُّصهنَّ مالي

وقال الاخطل يذكر جريرًا برعيهِ الشاء

فانعقْ بضأنك يا جرير فانما منّتك نفسك في الخلاء ضلالا

٤ً الصنائع

ومن اسباب المعاش عندهم احتراف الصنائع ولم يكن ذلك مما يمدحونهُ فان اشرافهم كانوا لا يرون مهنة الاَّ الغزو والسلب والنكاية بالعدو او الاقتصاص منهُ كما صرَّح دريد بن الصمَّة في قولهِ

يُغار علينا واترين فيشتفى بنا ان أُصبنا او نغير على وترِ
بذاك قسمتنا الدهر شطرين بيننا فما ينقضي الاَّ ونحن على شطرِ

اي انهم تارة يغيرون وطورًا يغار عليهم فما يتفرَّغون من الغزو الاَّ لدفع العدو

ولكن قد ورد في الشعر ما دلَّ على ان بعضهم كانوا يمتهنون الحرف فمن حرفهم (النساجة) ودليلنا ما ذكرهُ ذو الاصبع العدواني

---

(٦) اطعمهُ اي لا أطعمهُ والمراد بالحب هنا البرُّ اي القمح

(٧) الكرادِيس جمع كردوس وهي القطعة العظيمة

يرى يرفل في بردين من ابراد نجرانا

وكان العراقيون معروفين بالنساجة كما اوردنا لربيعة بن مقروم

على الاحداج واستتعرن ريطاً عراقيًّا وقبطيًّا مصونا

وكما قال عمرو بن كلثوم التغلبي « مَن باطورتق من قين ونسَّاجِ »

واشار دريد بن الصمة الى صناعة الحياكة بقوله

نجثتُ اليهِ والرماح تنوشهُ كوقع الصياصي في النسيج الممدَّدِ (٨)

وكانت النساء ايضاً يشتغلن بالنساجة وقد ورد في شواهد لسان العرب

وعليهِ انحميُّ نسجهُ من نسيج هورمْ

غزلتهُ ام حلى كلّ يوم وزن درهم

وقال صحيم عبد بني الحساس

فاصبحت الثيران غرقى واصبحت نساء تميم يلتقطن الصياصيا

فقد ذهب الى ان رجال تميم نسَّاجون فنساؤهم يلتقطنَ لهم الصياصي ليحفزوا بها الغزل. ولم تكن الحياكة مقتصرة على الملابس فقد اشتهرت الحيرة بحياكة الطنافس وطنافسها تسمَّى رحالاً قال الاعشى

ومصاب غادية كأن تجارها نشرت عليهِ برودها ورحالها (٩)

وقد سفُّوا (١٠) خوص بعض الاشجار كالدوم قال تميم بن مقبل

اذا الامعز المحزوُّ آض كأنهُ من الحرّ في حد الظهيرة مسطَّحُ (١)

اما نساؤهم فكنَّ ينسجن البرود كما تقدم الشاهد. والنارق والبسط قال ذو الرمة

وبالروض مكنان كأن حديقهُ زرابيُّ وشَّتها اكفُّ الصوانعِ (٢)

والحصر. قال النابغة الذبياني

كأنَّ مجرَّ الرامسات ذيولها عليهِ حصير نمَّقتهُ الصوانعُ

وكنَّ يغزلنَ الصوف. قال النابغة ايضاً

وعرِّيتُ من مال وخير جمعتهُ كما عرِّيت مما تمرُّ المغازلُ

---

(٨) الصياصي جمع صيصة وهي شوكة الحائك التي يسوي بها السدى

(٩) الرحل الطنافس الحيرية (١٠) سفوا نسجوا. الخوص ورق بعض الاشجار

(١) المحزو المجزور آض آب والمسطح حصير يسف من خوص الدوم

(٢) المكنان من بقول الربيع الزرابي جمع زربية وهي الطنفسة المخملة او البساط الفاخر والبساط قد يكون من ورق الشجر

ومن حرفهم (الصباغة) قال الاعشى

بكأس وابريق كأنّ شرابها اذا صبّ في المحجاة خالط بقّما (٣)

والبقّم صباغ معروف وهو النندم . وقال العجاج

بطعنة نجلاء فيها أُلهُ يجيش ما بين تراقيهِ دمهْ كمرجل الصبّاغ جاش بقمة

ومن حرفهم (الدباغة) قال ذو الرمّة

ما بال عينيك منها الدمع ينسكبُ كأنهُ من كلى مفرية سربُ

وفراء غرفية اتأى خوارزها مشنشل ضيّعتهُ بينها الكتبُ

والمفرية المزادة والوفراء الضخمة والغرفية المدبوغة بالغرف . قال ابو عمرو هو الارطى مع التمر والملح يُدبَغ بهِ. وكان لهم بالجلود عناية واشتغال فضلاً عن الدباغة قال القطامي

ولكنّ الاديم اذا تغرى بلى وتعيُّباً غلب الصناعا (٤)

ومن حرفهم (النجارة) وقد ذكر الراعي عمل الهوادج بقولهِ

يخيّلن منّ أثل الوريعة والنجى لها القينُ يعقوب بفأسٍ ومبرَدِ (٥)

وقد نسب امرؤ القيس الى حميَر عمل الحقاق (وهي اوعية من خشب) حيث قال

وريح سنا في حُقة حميّرية تخص بمفروك من المسك اذفرا

وكانوا يتخذون التروس من الخشب قال النابغة الجعدي

لُطِمنَ بترس شديد الصفا ق من خشب الجوز لم يُثقبِ

وهذا دليل اشتغالهم بالنجارة. وجاء ذكر بعض ادوات النجارة في شعرهم قال خداش بن زهير

يحدون اقرانهم في كل معترك طعنًا وضربًا كشقّ بالمناشيرِ

ومن حرفهم (الحدادة) قال عمرو بن كلثوم التغلبي

اذ لا ترجي سليمى ان يكون لها من بالخورنق من قينٍ ونسّاجِ

وقال النابغة الذبياني في صفة ثور وحشي

مولىَ الريح رَوقيهِ وجبهتهُ كالهيرقيّ تنحّى بنفخ الفحّما (٦)

والهيرقي الحداد وادلّ من ذلك قولهُ

وكل صموت نثلة تبعية ونسج سليم كل قمصاء ذائلِ (٧)

---

(٣) كذا رواية البيت في معجم لسان العرب مادة بقم وقد فسر المحماة بالمخرفة من حديد

(٤) تغرى الشقّ. الصناع الحاذق في الصنعة (٥) الوريعة محل . القين الحداد ويطلق ايضاً على كل صانع وهو هنا من ذلك (٦) روقيه قرنيه (٧) النثلة الدرع

والقمصاء الدرع والذائر ذو الذيل (وقمصاء ذائل على الاضافة) نسبة نسج الدرع الى سليم دلالة على انهم يعرفون الحدادة . ولنا من هذا ان نستخلص ان التلة الصموت وهي الدرع المسبوكة وان القمصاء ذات الحلق كما يقرر ذلك المعجم. واحتراف عمل الاولى كان معروفاً في اليمن واحتراف عمل الثانية كان في بني سليم. واشار امية بن خلف الى معرفة اليمنيين بالحدادة في قوله

يحايًا يظل يشد كيرًا وينفخ دائمًا لهب الشواظ

وذكر لسان العرب ان ابن الكلبي قال . " اول من عمل الحديد من العرب الهالك بن عمرو بن اسد بن خزيمة وكان حدادًا نُسب اليه الحداد فقيل الهالكيُّ ولذلك قيل لبني اسد القيون وقال لبيد

جُنوحَ الهالكي على يديهِ مكبًّا يجتلي نُقَبَ النصالِ "

والسيوف المشرفية منسوبة الى مشارف قرى من ارض اليمن تعمل اهلها السيوف

ومن صنائعهم (استخراج المعادن) وقد جاء في تفسير قول عمرو بن قعاس المرادي

الا رجلاً جزاهُ الله خيرًا يدلُّ على محصّلة تبيتُ (٨)

ان المحصلة هي التي تحصل تراب المعادن . والتحصيل هو استخراج الذهب من حجر المعدن . وقال ربيعة بن مقروم

هجان الحيّ كالذهب المصفّى صبيحة ديمةٍ يجنيهِ جانِ

قال شارح ديوان الحماسة عند تفسيره هذا البيت : ان معدن الذهب بناحية اليمن اذا اشتد المطر عليهِ جلاهُ فصار لهُ بريق يُرى من بعيد وسهل على ملتمسهِ لقطهُ

ومن صنائعهم (الغياصة) وقد وصف الاعشى الغوص بقصيدة طويلة نعدُّ من بدائع نظمهِ منها

كجانة البحريّ جاء بها غواصُها من لجة البحرِ
نصف النهار الماء غامرهُ ورفيقهُ بالغيب لا يدري

وهذه الحرفة لا تكون الاَّ لأُمة تركب البحار والامة العربيَّة قد استعملت السفن بدليل قول عمرو بن كلثوم التغلبي

ملأْنا البرّ حتى ضاق عنا كذاك البحر نملاهُ سفينا

امين ظاهر خير الله

(٨) من شك في البيت فليراجع الصفحة ٤٦٠ من الجزء الاول من كتاب خزانة الادب للبغدادي وصفحة ٦٦ من حاشية الامير على الجزء الاول من مغني اللبيب